الفصل الثانى

نظـــرية المناسبة
وأسرار النظام اللغوى

نظـــرية المناسبة

أدرك الرافعى بعد البحث والتأمل أن اسرار النظام اللغوى تقوم على نظرية المناسبة ، وتبين له ان هذه النظرية هى سبب التمدن ، وأنها تسيطر فى رأيه على اضرب النظام سيطرة واضحة ، وتفسر ما بين الالفاظ والمعانى من صلات أو علاقات •

ولا ريب فى أنه آمن بها ايمانا شديدا ، بعد أن اســـتشف فى الكلمات أمورا سحرية ، وتخيل فى منطوقها رموزا وعلامات لونها أدبه ، وقد روحى الاصوات تقديرا يومىء الى اعتزاز كبير بالالفاظ وسعادة بما يستشف فى ثناياها من معان • وبحثه فى اسرار النظـــام اللغوى برهان على أنه يرعى الالفاظ رعاية كاملة غير مكتف بالمدلولات بل ينقب عما وراء المدلولات موغلا أحيانا فى عالم من الخيال فيه من دقائق المعانى وألوانها ، وفيه ما وراء المعـــانى مما قد توحى به الاخيلة • •

ومن الانصاف أن نشهد بأن هذا الاديب العالم عنى بفـــكرة المناسبة عناية انفرد بمستواها الذى لم يبلغه احد قبله أو بعده ، وذلك لانه على الرغم من الجهد الكبير الذى بذل فى دراسة الصلة بين اللفظ والدلالة فى شتى العصور فان احدا لم يستطع أن يكون نظرية شاملة للمناسبة بين الالفاظ والدلالات ، ويحدد كل أوجه المناسبة ، وينظر اليها تلك النظرة التى تجعلها مهيمنة على أنواع النظام اللغوى ، بما تملكه من وسائل فطن لها الرافعى •

وأستطيع أن أقول فى ثقة ان هذا الرجل هو الذى مد وجهها ، وجعل لها السيادة ، واستخدمها فى عمق وشمول لتكشف أسرار النظام اللغوى ، والفرق واضح بين جهده وجهد من سبقوه ، ومستواه فى الاعتماد عليها يؤكد أنه صاحب الفضل فى ابراز شأنها فى تحقيق الترابط ، وتجلية العامل الهام الذى يعطى البحث اللغوى القدرة على التحكم فى الدرس ، وجمع الاوجه المختلفة تحت رباط واحد ، ونظرية

واحدة • وليس معنى ذلك اننا نوافقه فى كل ما قاله أو انتهى اليه ، فاننا سنخالفه حين يسرف أو يتعسف ، ونبين ما وقع فه عندما يتعثر أو يخطىء ونذكر رأى علم اللغة فيما يقرره • وأبواب الدراسة اللغوية التى تناولها تؤكد تمسكه بالنظرية ، وترشدنا الى أنه لم يقف أمامها كما وقف الآخرون الذين انتهوا الى ما انتهى اليه السابقون ، ورددوا ما قالوه دون ان يزيدوا شيئا أو يحققوا أمرا ، ودون ان يجعلوا درس المناسبة كفيلا بالدلالة على التمدن وامتياز العربية فى باب المناسبة •

ولن نقدر ما بذله الرافعى من جهد . ولن نعرف ما صنعه ليمدها ويفرض رباطها الا اذا عرفنا أهم ما قامت به الدراسات التى تناولت فكرة المناسبة • ويجب ان نعلم أن البحث اللغوى عرف اهتمام فلاسفة اليونان والرومان ، وعلماء العربية القدماء بالبحث عن العلاقة بين الاصوات ومدلولاتها ، كما عرف عناية المحدثين بالبحث عن الصلة بين الالفاظ ومعانيها • ويدل على اهتمام فلاسفة اليونان والرومان بما ذكرناه أن أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق•م) « فى محاورته المسماة كراتيلوس يناقش أصل الكلمات . ويناقش مسألة هامة ظلت تشغل اللغويين والمفكرين أزمنة طوالا هى مسألة العلاقة بين « الاشياء » والكلمات التى تسميها ، أهى علاقة طبيعية وضرورية ، ام أنها لا تعدو أن تكون ثمرة اصطلاح الجماعات » (١) •

ولقد ظهر أصحاب القياس وأصحاب التشذيذ . أما اصحاب القياس فكانوا يعتقدون أن اللغة فى اساسها طبيعية ، وهى لذلك منتظمة ، أى مطردة القواعد ومنطقية • • وأما اصحاب التشذيذ فكانوا ينكرون هذه الامور ، ويشيرون الى الشواذ الملحوظة فى التركيب اللغوى • وعند القياسيين أنه من الممكن تتبع اصل الكلمات ومعناها بالنظر فى أشكالها ، وسموا البحث فى هذا الاشتقاق •• ويرى بلومفيلد أن نظرية الاشتقاق دعت اليونانيين وتلامذتهم الرومان الى الحدس والتخمين •• (٢)

---

(١) د . محمود السعران — علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٤٩

(٢) نفس المصدر هامش ص (٣٤٩ — ٣٥٠)

واستمرار الجدل والنقاش أدى الى الانتهاء الى مذهبين :
مذهب الذين لم تتخلص عقولهم من سحر الكلمة ، وهم يحسبون أنها ذات قوى كامنة فيها ، ويعتزون بها ويحرصون على الكشف عن الاسرار والخبايا •• وهذا المذهب يقرر وجود رابطة طبيعية تدركها العقول ، وتتقبلها الافهام بين الاصوات والمدلولات •

أما المذهب الثانى فهو مذهب الذين ينكرون الصلة الطبيعية أو الصلة الذاتية ، ويقدرون أثر اختلاف الازمنة والامكنة ، ويكرهون التعسف والتكلف ، ولا يحبون اللجوء الى الامانى ، وانما يلتزمون بالواقع ، ويرون ان الصلة بين الاصوات والمدلولات ليست بالصلة العقلية المنطقية التى تتطلبها فكرة المناسبة حسب نسقها •

وهذا المذهب يرى أن الامر لا يعدو أن يكون اصطلاحا عرفيا جرى الناس عليه فى كلامهم ، فلا علاقة بين الاصوات والمدلولات الا ما سمح به العرف والاصطلاح (١) ، وواضح أنه يجرد الظواهر اللغوية من كل غموض ولا يرى فيها أمورا سحرية • •

ولم يقم المذهبان بعملية الملاحظة الدقيقة الشاملة ، او الاستقراء للحقائق وعرض الادلة الكافية ، وان لجأ بعض الذين نادوا بالمذهب الاول — حين حاول غموض الصلة بين الالفاظ ومدلولاتها أن يهدد مذهبهم — الى افتراض ان تلك الصلة الطبيعية كانت واضحة ، سهلة التفسير فى بدء نشأتها ، ثم تطورت الالفاظ ، ولم يعد من اليسير أن نتبين بوضوح تلك الصلة ، أو نجد لها تعليلا وتفسيرا (٢) •

ولجأ آخرون الى القيام بعقد الصلة أيا كانت تلك الصلة ، ولاذ مسلكهم بالتعسف والتكلف ، ولجأ غيرهم الى اتهام العقول والافهام بالقصور أما افلاطون وسقراط فقد أدرك كل منهما أن الصلة بين الاصوات ومدلولاتها غامضة « لا تكاد تتضح فى اللغة كما عرفت فى عهدهما ، وكما شاعت على الالسنة فى أيامهما ، ولكنهما مع هذا يتمنيان

---

(١) د • ابراهيم انيس — من اسرار اللغة ص ١٢٦
(٢) نفس المصدر ص ١٢٦ ودلالة الالفاظ للمؤلف نفسه ص ٦٣

أن تخلق تلك اللغة التى فيها تتوثق العلاقة بين الاصوات والمدلولات وأن تصبح تلك العلاقة طبيعية بحيث نلحظ فى الاصوات امورا رمزية وثيقة الصلة بالمدلولات » (١) •

ويبدو ان سقراط كان يميل الى المذهب الاول ، ويرى فيه مثالية تربط بين الالفاظ ومدلولاتها ربطا طبيعيا ذاتيا ، كتلك الالفاظ المشتقة من أصوات الطبيعة • (٢) أما ارسطو فكان يرى أن الصلة عرفية (٣) وأما علماؤنا المتقدمون فقد جرى بينهم نقاش وجدل حول مسألة الصلة بين الالفاظ والدلالات وذلك بمناسبة البحث فى أصل اللغة هل هى تواضع واصطلاح أم توقيف ووحى • ومن المعروف أنهم اختلفوا فى كيفية دلالة الالفاظ على معانيها ، ونوع العلاقة بين اللفظ ومدلوله ، وعلة اقترانهما ، فهل تدل الالفاظ على المعانى بذواتها أو بوضع الله اياها أو بوضع الناس •

واذا نظرنا الى الآراء المختلفة التى تناولت مسألة الصلة بين اللفظ والدلالة فاننا نجد من يغالى غلوا شديدا فى توثيق الصلة وجعلها ذاتية موجبة بمعنى أنها لا تتخلف ، ولابد من وجودها ، وهو عباد بن سليمان الصيمرى من المعتزلة ، ومن اثر فيهم من اللغويين من اتباعه ، وقد ذهب هذا الرجل الى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، قال : « والا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح » (٤) •

أما من أثر فيهم من اللغويين من أتباعه ، فقد تكلف بعضهم فى اظهار هذه المناسبة ، وخرج على طبيعة العربية نفسها ، وجعل العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله لا يقتصر فيها على العربية ، بل تشمل سائر اللغات ، ويدل على ذلك ما ذكره السيوطى حيث يقول : (٥)«وكان بعض من يرى رأيه يقول : انه يعرف مناسبة الالفاظ لمعانيها ، فسئل ما مسمى « أذغاغ » وهو بالفارسية الحجر ، فقال : أجد فيه يبسا شديدا وأراه الحجر » •

---

(١) د • ابراهيم انيس — من اسرار اللغة ص ١٢٦
(٢) د • ابراهيم انيس — دلالة الالفاظ ص ٦٣
(٣) نفس المصدر ص ٥٦
(٤) السيوطى — المزهر ج ١ ص ٤٧
(٥) المصدر نفسه والصفحة ذاتها

ولعل ما قاله بعض من يرى رأى عباد كان كذلك بطريق الصدفة لاننا لا نعلم شيئا عن مستوى الاجادة للغة الفارسية ، ولعل استشعار ما فى اللفظ من يبس شديد ، عرف القائل المسمى من الاسم ، والمدلول من الصوت (١) •

والسيوطى يرى أن هناك علاقة بين موقف عباد ومذهب الاعتزال ففكرة المعتزلة أن المشرع يجب عليه ان يراعى الاصلح ، وأن علة الحرمة فى الاحكام الشرعية ذاتية ، فاذا ظهر لنا الفساد والضرر فى شىء ، حكمنا بالحرمة ، ولو لم يرد نص بذلك • يقول السيوطى (٢) بعد أن ذكر الفرق بين مذهب أهل اللغة والعربية ، ومذهب عباد : « وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الاصلح فى أفعال الله تعالى وجوبا ، وأهل السنة لا يقولون بذلك مع قولهم أنه تعالى يفعل الاصلح فضلا منه ومنالا وجوبا ولو شاء لم يفعله » •

ويرى بعض الباحثين أن عبادا من العلماء الافاضل ، وأنه فى رأيه لا يمكن أن يقول بذلك ، بل لابد أن يكون من القائلين بالتوقيف أو الاصطلاح ، وهو الاقرب ، الا ان الواضع عليه أن يراعى المناسبة بين الدال والمدلول (٣) •

ولم يقدم الباحث دليلا الا أن عبادا من العلماء الافاضل فى رأيه ، ومسألة أنه من العلماء الافاضل لاتصلح حجة أو برهانا ، فهناك معايير ومناهج يجب مراعاتها ، ولا يستبعد ما قاله عباد ومن يرى رأيه ، وكان يكفى الباحث التأمل فى كلام السيوطى ، فقد ذكر أن أهل اللغة والعربية قد كادوا « يطبقون على ثبوت المناسبة بين الالفاظ والمعانى ، لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أن عبادا يراها ذاتية موجبة ، بخلافهم • وهذا كما تقول المعتزلة • • الخ » ويلاحظ أن هذا الكلام يشير الى مذهبين ، وينبه على موقف الاعتزال • • ولعل الباحث قد تأثر بانكار الجمهور ما قاله عباد وأراد أن يدافع عنه ، وهو يعلم نزعته الاعتزالية ، وحقه فى الرأى والاجتهاد والاستقلال •

---

(١) د — صبحى الصالح — دراسات فى فقه اللغة — الطبعة الثالثة — ١٩٦٨ بيروت ص ١٥٠

(٢) المزهر ج ١ ص ٤٧ — ٤٨

(٣) عبد الله العزازى — فقه اللغة — ص ٣٣

والجماعة كما ينص ابن جنى تلقت مذهب المناسبة بالقبول له والاعتراف بصحته ، ونبه عليه علماء اللغة القدامى كالخليل وسيبويه (١) •

وليس مرد الخلاف فى الحقيقة الى وجود هذه المناسبة الطبيعية وعدم وجودها بل الى ما يراه من أن هذه المناسبة ذاتية موجبة •

وقضاء السيوطى بأن أهل اللغة والعربية قد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة لا يعنى اتحاد المستوى أو اتفاق المنهج والدرس والحكم • • لان علماء اللغة كان منهم من نبه عليها فى اعتدال ، ونأى عن التعسف والتكلف والاسراف ، مثل الخليل بن أحمد وسيبويه يقول صاحب الخصائص (٢) فى امساس الالفاظ اشباه المعانى : « اعلم أن هذا موضع شريف لطيف • وقد نبه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحته •

قال الخليل كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا صر وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا صرصر •   ؟

وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان ، انها تأتى للاضطراب والحركة ، نحو النقزان ، والغليان ، والغثيان • فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الافعال • »

وفى كتاب العين للخليل بن أحمد أمثلة أخرى ذكر بعضها فى تناوله أبنية المضاعف مما يؤكد اهتمامه بالمناسبة وفطنته لوجهها • (٣)

وفى الكتاب لسيبويه عناية بتعليل أمثلة المناسبة ، وبعد عن الشطط فى درسها (٤) •

وكان من هؤلاء العلماء من اتسع فى باب المناسبة ، واجتهد فى الربط بين الالفاظ ومدلولاتها ربطا قويا يكاد يشبه الصلة الطبيعية

---

(١) الخصائص جـ ٢ ١٥٢

(٢) ابن جنى : الخصائص جـ ٢ ص ١٥٢

(٣) الخليل بن احمد : كتاب العين ص ٦٣ — ٦٤ تحقيق د : عبد الله درويش مكتبة العانى بغداد ١٩٦٧

(٤) سيبويه : الكتاب جـ ٢ ص ٢١٨

أو الذاتية مبينا أنه وجد اشياء كثيرة على سمت ما أتى به الخليل وسيبويه ومنهاج ما مثلاه (١) ، وهو يفعل ذلك فى جو يقرر أن اللغة شريفة كريمة لطيفة ، فيها من الحكمة والدقة ، والارهاف والرقة — ما يملك عليه جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر • وهو ابن جنى الذى شغف بنظرية المناسبة ، وعقد لها فصولا أربعة (٢) فى الخصائص سندرسها فى نظام الالفاظ بالمعانى ، لاعتماد الرافعى على ما قاله فيها ، واتيانه بكل ما جاء به • •

وجماع الامر أنه يرى أن هذه المناسبة محققة ، وان لم تظهر فمرجع ذلك الى أن المتأمل لم ينعم نظره حتى تظهر له صورتها ، أو أن هناك أمورا فى اصول اللغة لم تصل الينا فخفيت علينا هذه المناسبة (٣) أو أن الاول وصل اليه علم لم يصل الى الآخر •

وهو فى هذا يعبر عن شىء من الغلو والبعد ، فكثير من الالفاظ الموضوعة للمعنويات لا تتضح فيها المناسبة ، وكذا اسماء الاجناس ونحوها قد تخفى فيها المناسبة ، لان الشىء قد يسمى بما لا صلة له بـــه •

وسنقول الكثير حين نناقش ما قاله الرافعى ، ونكشف المآخذ ، ونبين رأى الباحثين وعلم اللغة ليتضح الحق والصواب •

ويبدو أن العلماء الذين جاءوا بعد ابن جنى شغلهم ما ذكره ، كما شغلهم ما ذكره عباد من قبل ، ورأوا انه لا يكفى ما قاله الجمهور فى انكار مقالته ، وهو أنه لو ثبت ما قاله لاهتدى كل انسان الى كل لغة ، ولمـــا صح وضع اللفظ للضدين (٤) — ولذلك نجد اهتمامهم بتحقيق الامر ، والرد على هذين الرجلين اللذين لا يخلو مذهبهما من الغلو المفرط كما اشرنا ، وان بدا الفرق بينهما • ومن هؤلاء العلماء الرازى (٦٠٦ هـ) فقد رد القول بذاتية دلالة الالفاظ على مدلولاتها المنسوب

---

(١) ابن جنى — الخصائص ج ٢ ص ١٥٣
(٢) انظر ابن جنى الخصائص ج ٢ ص ١١٣ — ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٥ — ١٥٢ وما بعدها
(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ١٦٤
(٤) السيوطى — المزهر ج ١ ص ٤٧

لعباد بن سليمان اذ انها تتغير باختلاف الازمنة والامكنة والذاتيات لاتكون كذلك ، ذلك أن دلالة الالفاظ على نفسها ليست مستمدة الى الوضع اصلا لوجودها فى الالفاظ المهملة ايضا بلا تفاوت نحو جسق مركب من ثلاثة أحرف (٢) ويقرر الآمدى (٦٣١هـ) أن « دلالات الاسماء على المعانى ليست لذواتها ولا الاسم واجب للمعنى ، بدليل انتفاء الاسم قبل التسمية ، وجواز ابدال اسم البياض بالسواد فى ابداء الوضع ، وكما فى أسماء الاعلام الموضوعة لارباب الحرف والصناعات لادواتهم » (٣) •

ومن قبل ذكر عبد القاهر الجرجانى (٤٨١هـ) « أن واضع اللغة لو كان قال ربض مكان ضرب لما كان فى ذلك ما يؤدى الى فساد » (٤)

أما ابن السيد البطليوسى (ت ٥٢١هـ) مؤلف كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، فانه رأى مدى ما وصل اليه ابن جنى فى درس المناسبة ، وكان رأيه فى الاقتضاب أن العرب ربما حاكت المعنى باللفظ فى بعض المواضع ،ولكن هذا قياس غير مطرد ، والتشاغل بما تشاغل به ابن جنى عناء لا فائدة منه (٥) •

ولسنا مع البطليوسى فى زعمه عدم الفائدة ، وانما نبغض منطق الشطط ، والمبالغة فى القول لفرض أمر بعيد •

والمحدثون من الباحثين اختلفت مذاهبهم ، فمنهم من يرى أن هناك رابطة تدركها العقول وتتقبلها الافهام بين الاصوات والمدلولات ومنهم من يرى أن الكلمة حين وضعت أولا وفى نشأتها كانت أصواتها وثيقة الصلة بمدلولها ، ثم انحرفت عن هذا مع توالى الايام ، واصبحنا لاندرك تلك الصلة • ومنهم من يرى أن الامر لا يعدو أن يكون

---

(١) الجيزاوى : تحقيقات شريفة وتدقيقات منيفة ص ٩٣
(٢) الرازى : مفاتيح الغيب جـ ١ ص ١٢ وما بعدها
(٣) الآمدى : الاحكام فى أصول الاحكام جـ ١ ص ٤٨
(٤) عبد القاهر : دلائل الاعجاز ص ٤٠
(٥) ابن السيد البطليوسى : الاقتضاب فى شرح ادب الكتاب ص ١٥٧ — ١٥٨

اصطلاحا عرفيا جرى عليه الناس فى كلامهم ، وأنه لا علاقة بين الاصوات والمدلولات الا بمقدار ما سم حبه العرف والاصطلاح ، ومنهم من اتخذ طريقا يرى فيه الاعتدال ، ويعتبره ثمرة التحقيق والموازنة •

ويستند المذهب الاول فى اثبات الارتباط بين الاصوات والمدلولات ، وتأييد نظرية المناسبة — الى أمور هامة فى رأيه ، وهى ما يأتى :

١ — أن الكلم « وضعت فى أول أمرها على هجاء واحد ، متحرك فساكن ، محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم فئمت — أى زيد فيها حرف أو أكثر فى الصدر ، أو القلب ، أو الطرف ، فتصرف المتكلمون بها تصرفا يختلف باختلاف البلاد والقبائل ، والبيئات ، والاهوية •

فكان لكل زيادة ، أو حذف ، أو قلب ، أو ابدال ، أو صيغة ، معناة ، أو غاية ، أو فكرة دون اختها ، ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن على ما أوحته اليهم الطبيعة أو ساقهم اليهم الاستقراء ، والتتبع الدقيق ، وفى كل ذلك من الاسرار والغوامض الآخذة بالالباب ، ما تجلت بعد ذلك تجليا بديعا ، استقرت على سنن وأصول وأحكام لن تتزعزع » (١)

٢ — لايستطيع أحد من اللغويين أن ينكر أن هناك نوعا من الكلمات جاءت فيه أصوات الكلمة نتيجة تقليد مباشر لاصوات طبيعية صادرة عن الانسان أو الحيوان أو الاشياء •• وهذا النوع هو الذى يطلق عليه المحدثون كلمة Onomatopoeia

وفى العربية من هذا النوع اسماء الاصوات مثل القهقهة ، والغمغمة والضوضاء ، والنحنحة ، والتأوه ، والغطيط ، والشخير •

وهذا للانسان ، وللحيوان رغاء الناقة وبغامها ، وهدير الجمل ، وصهيل الفرس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ،

---

(١) انستاس مارى الكرملى : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ص ١

وزئير الاسد ، وعواء الذئب ، ونباح الكلب ، ومواء الهرة ، وغير ذلك • وللاشياء خرير الماء ، وهزيم الرعد ، وصرير القلم ، وغير ذلك (١) ونحن لا نحتاج الى كبير عناء حتى نلمح العلاقة الطبيعية بين الالفاظ الموضوعة لمحاكاة الاصوات التى تصدر عن الحيوانات وغيرها ، ومراعاة اللين أو القوة ، والخفة أو الشدة ، والهمس أو الجهر فى التعبير عن المعانى برهان واضح على المحاكاة الانسانية لاصوات الظاهرات المعبر عنها • (٢)

٣ ـ أنه تنشأ كلمات للتعبير عن مصدر الصوت الطبيعى مشتقة من هذا الصوت ، وذلك كما فعلت بعض الامم الاوروبية فى تسمية طائر معين يظهر فى الربيع ، ويصيح « كوكو » • فنشأت فى اللغة هذه الكلمة وأطلقت على الطائر نفسه ، لا على صوته فقط • وهذا أمر طبيعى ، اذ من العسير الفصل بين الصوت ومصدره ، ويشبه هـذا تلك الاسماء التى قد تنشأ نتيجة السخرية بشعب من الشعوب ، او المداعبة أو الاستهزاء • (٣)

٤ ـ توجد اصوات تنشأ عن حركات الانسان قد توحى بنوع من الكلمات وثيق الاتصال بين اللفظ ومدلوله •• ومن هذا النوع القطع والقطم والقضم والخضم وغير ذلك (٤) •

٥ ـ هناك كلمات تعبر عن الحالة النفسية ، يستمسك بها اصحاب علم النفس ، ويرون فيها الصلة بين الاصوات والمدلولات واضحة جلية ، ففى الكره والنفور والسخرية مثلا نجد كلمـات مثل البغض

---

(١) د . ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٣٠ ودلالة الالفاظ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢) د . صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ١٥٢ .

(٣) د ـ ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٣٢ وانظر دلالة الالفاظ ص ٦٩

(٤) من اسرار اللغة ص ١٣٢ وانظر : د . صبحى الصـــالح ـ دراسات فى فقه اللغة ص ١٥٢ .

والغضب والنفور والفتور والشنآن والشنف وغيرها (١) •• والرافعى يهتم بهذا الجانب اهتماما بارزا فى نظام المعانى بالالفاظ ، ويجعل له نسقا يوحى بايمانه الشديد به •

٦ — الامثلة الكثيرة التى تؤكد أن طول الكلمة أو قصرها فى الاصوات قد يوحى فى اللغة بمعنى خاص • ومن ذلك قولهم : « زيادة المبنى يتبعها زيادة المعنى » • واشارتهم الى أن تضعيف عين الفعل قد يعبر عن المبالغة مثل ذبح وذبح ، وكذا ما جاء على مثال جرو جرجر وغير ذلك يفيد المبالغة أيضا ، وما ذكر من أن زيادة الراء وتكريرها فى القمطرير : الشديد — للتأكيد ، وما قيل فى العقنباة : الداهية من أنه مما زيدت فيه الزوائد تهويلا وتفخيما ، والامثلة على هذا الضرب كثيرة كما ذكرنا • (٢)

٧ — قيام الحركات بالرمز فى بعض اللغات لمعان خاصة ، ففى العربية نجد الكسرة فيها رمزا للمؤنث ، والتصغير بالياء التى هى أخت الكسرة (٣)

٨ — بعض الدارسات التى جاءت بعد استيعاب مؤلفات السابقين، وقضت بأن أهل اللغة والعربية قد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة الطبيعية بين الالفاظ والمعانى • (٤)

٩ — ماكشفه الذين اهتموا بالاشتقاق من صلات بين الاصوات والمدلولات ، وأظهروا دلالة الحرف السحرية وقيمته التعبيرية الموحية مقتنعين بوجود التناسب بين اللفظ ومدلوله فى حالتى البساطة والتركيب ، موجهين الى أنه عند انعام النظر وملاطفته ، يمكن الوصول الى المناسبة ، ويتم اكتشاف التقارب ، وعند التأمل يحقق مايرجوه الدارس (٥) •

---

(١) د .ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٣٢ ودلالة الالفاظ ص ٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٣ وانظر ابن جنى الخصائص ج ٣ ص ٢٦٤ وما بعدها . وابن فارس : المقاييس ج ٥ ص ١١٧ و ج ٤ ص ٣٧٢ وج ١ ص ٣٣٢ .
(٣) د — ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٣٣ .
(٤) السيوطى : المزهر ج ١ ص ٤٧ .
(٥) د صبحى الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٢٠٤ — ٢٠٩ .

ويذكر الدكتور ابراهيم أنيس أن الدارسين فى الجامعات الاوربية ظلوا ينتصرون لفكرة الصلة العقلية بين الاصوات والمدلولات حتى أواسط القرن التاسع عشر (١) •

والمذهب الثانى من مذاهب المحدثين يرى نفس ما رآه بعض فلاسفة اليونان والرومان وهو أن الكلمات بدأت واضحة الصلة بين أصواتها ودلالاتها ثم تطورت تلك الاصوات أو تلك الدلالات ، وأصبحت الصلة غامضة علينا ، ولم يدع هذا المذهب أن المناسبة الطبيعية تطرد فى كل كلمات اللغة (٢) • ولاريب أن أصحاب هذا المذهب ومنهم همبلت العالم اللغوى المشهور المتوفى سنة ١٨٣٥ — ينتصرون للمناسبة ، ولكنهم أدركوا بعد التأمل والنظر أنه من الخير أن يعترفوا بعدم الاطراد وأن ينبهوا على ماوجدوه من غموض (٣) • واذا كان جسبرسن قد حقق ماقاله بعضهم ودافع عنه فانه كان حريصا على التحذير من المغالاة فى باب المناسبة بين الالفاظ ودلالاتها ، لان هذه الظاهرة اللغوية فى رأيه لاتكاد تطرد فى لغة من اللغات ، وأن بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مر الايام فى حين أن كلمات أخرى تكتسبها وتصبح فيها واضحة (٤) وعلى الرغم من دعوته الى الحذر فانه يقرر فى النهاية : « أن كلمات اللغات تزداد مع الايام ايحاء للدلالات ، وتكتسب الالفاظ بمرور الزمن قدرا أكبر من تلك الرمزية • ويتنبأ من أجل هذا بتلك النبوءة المتفائلة التى كان يحلم بها فلاسفة اليونان من أن يأتى اليوم الذى تصبح فيه الصلة بين الالفاظ ودلالاتها أكثر وضوحا وأوثق ربطا مما عرف أجدادنا القدماء (٥) أما المذهب الثالث فانه يرى أن اللغة أصوات انسانية لاتكاد تخضع لنظام عقلى منطقى فى تكونها وصدروها وذلك للاسباب الآتية :

١ — أن اللغة أصوات انسانية ، وهناك قدر مشترك من الاصوات بين معظم اللغاب ، كما يوجد منها ما يختص بلغة من اللغات أو فصيلة

(١) د — ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٢٨ .
(٢) د . ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ٦٨ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) المصدر ذاته ص ٦٨ .
(٥) نفس المصدر ص ٧٠ .

من الفصائل اللغوية ، ومع أن هذا القدر المشترك بين لغات البشر كبير فانه لايكاد يدرك أى صلة عقلية بينه وبين التفكير الانسانى العام ، ولايكاد يعرف الاساس العقلى الذى أدى الى اشتراك الميم والفاء والكاف ، وغير ذلك من أصوات لغوية فى كلام معظم الناس مهما اختلفت بيئاتهم ، وتعددت لغاتهم ، أو تباينت أجناسهم (١) •

٢ ــ هناك أصوات غرزية يبدأ بها الطفل مناغاته كالميم والباء ، فسرها اللغويون على أنها مرتبطة بعملية الرضاعة ، ولاحظوا تبعا لهذا اشتراك كلمات قديمة بعيدة فى القدم بين جميع اللغات ، أساسها الميم أو الباء وتعبر عن الابوة والامومة • وحتى تلك الاصوات لايكاد يدرك منها ، لماذا اتخذت معظم الكلمات من الباء صوتا أساسيا للتعبير عن معنى الابوة ، ومن الميم أساسا للتعبير عن معنى الامومة ؟ ولم لم تكن المسألة معكوسة ؟ (٢) •

٣ ــ لايمكن تجاهل الظروف الاجتماعية الخاصة التى بررت اختصاص الابوة بصوت والامومة بآخر ، ان استقرار تلك الكلمات فى اللغات البشرية جعل الناس يستمسكون بها بعد ذلك ، جيلا بعد جيل ولذلك أصبحوا يأبون على الطفل مناغاته الآن بصوت الميم وهو ينظر الى أبيه ، أو الباء وهو ينظر الى أمه ، لان الكبار هم الذين فسروا منذ القدم مناغاة الطفل « حسب ما تصادف حينئذ من ظروف اجتماعية خاصة ، واستقر أمرهم على اعتبار المناغاة بالباء تعبر عن الابوة فى حين أن المناغاة بالميم تعبر عن الامومة » (٣) •

٤ ــ ان القيمة اللغوية مسببة عما ألف الناس أن يعطوها من دلالة ، والاصطلاح أو الاعتباط هو الاساس « وعلى هذا فان مايقال عن الصلة الوثيقة بين اللفظ والمعنى ، وأن الاول هو حكاية يتأدى فيها ذلك المعنى غير مقبول على الدوام ، لان حكاية الصوت حد واسع

---

(١) د : ابراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ١٢٤ •
(٢) نفس المصدر والصفحة
(٣) نفس المصدر والصفحة •

المعنى ، لم يقيده ضابط يصدق فى جميع الاحوال ومن يتأمل معنى القطع يجده يؤدى بحروف كثيرة عديدة لاسبيل الى أن نأتى على حصرها وضبطها • « ومعنى هذا أن حكاية الصوت لاتؤدى بحروف معينة ، وأن المعنى على هذا لم يوضع توقيفا أو اصطلاحا ، ومن أجل هذا فاللفظة التى تعرب عن « الوحدة » فى العربية وهى « واحد » أو أحد أو أول • وكذلك اللفظة التى تدل على فكرة « الازدواج » وهى « اثنان » ، وغير ذلك من أسماء العدد •• لاتملك أية صلة بفكرة الوحدة أو فكرة الازدواج ، وما المعنى الذى تسوق اليه الاشىء اصطلاحى ألفه الناس منذ كانوا ، وعلى هذا فالاستعمال حدمهم ، وضابط جامع لايستطيع اللغوى أن يتخطاه ، ويضرب فى الاوهام التى لاتسعفه ، ولايفيد منها •• » (١)

٥ — من العبث أن ننظر فى البحث عن الصلة بين الاصوات والمدلولات ، لان آلافا من السنين قد مرت على الكلام الانسانى ، ومن العبث افتراض أن الانسان الاول قد راعى فى الاهتداء الى الكلمات صلة وثيقة بين الاصوات والمدلولات ، فهذه المسألة مرتبطة بنشأة الكلام الانسانى الذى تباينت فيه النظريات واضطربت فيه الآراء ، ولم يبلغ أحد فيه مبلغ اليقين أو القطع (٢) •

٦ — من الملاحظ أن الاصوات والمعانى قد تتغير باختلاف الازمنة والامكنة وتخضع للتطور وأن أبناء اللغة الواحدة يتغير تفسيرهم للاصوات الطبيعية بتغير الاجيال والازمان والظروف الاجتماعية • وما توحيه الاصوات الطبيعية للافراد فى العصر الواحد والبيئة الواحدة قد يختلف من فرد الى فرد فاذا طولب هذا بوضع كلمة لصوت طبيعى سمعه ، فقد يختلف ما يأتى به عما يكون فى ذهن أخيه • « أما ماتوحيه الاصوات الطبيعية فى أذهان الشعوب فلا نزاع فى أنه يختلف من شعب الى شعب • » (٣) •

---

(١) د : ابراهيم السامرائى : فقه اللغة المقارن ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) د : ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٢٧ ومحمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٣) د :ابراهيم انيس من اسرار اللغة ص ١٣١ وانظر ص ١٢٩ وانظر عبد السلام هارون معجم مقاييس اللغة مقال بمجلة اللغة العربية جـ ١٥ سنة ١٩٦٢ م ص ١٠٢ .

وهذا يدل على أن فكرة الصلة بين الاصوات والمدلولات ليست بالامر الانسانى العالمى ليمكن أن ترتبط باالعقل البشرى العام أو يمكن أن نرى فيها صلة من صلات المنطق الانسانى العام (١) ٠

٧ ــ أن الالفاظ « لاتعدو فى حقيقتها أن تكون بمثابة الرموز على الدلالات كل لفظ يصلح أن يتخذ للتعبير عن أى معنى من المعانى ، فما يسمى « بالشجرة » يمكن أن يسمى بأى لفظ آخر متى اصطلح الناس عليه ، وتواضعوا على استعماله ، فليس فى لفظ الشجرة مايوحى بفروعها وجذورها وأوراقها وخضرتها ٠ وقد كان من الممكن أن يعبر عن هذه المعانى برموز أخرى غير صوتية كالاشارة ونحوها ٠٠ » (٢) ٠

ويؤكد بعض العلماء أن الالفاظ لاتراد لانفسها ، وانما تــراد لتجعل أدلة على المعانى ، وليس هناك فساد لو قيل لفظ مكان آخر عند الوضع وليس الاسم واجبا للمعنى بدليل انتفاء الاسم قبل التسمية ٠٠(٣) ويشير بعضهم الى ضرورة مراعاة ما تخلعه الذات على الموضوع، وما تصنع الآراء التى تكشف النفس (٤) ٠

٨ ــ أن الصلة المكتسبة بمرور الايام،وكثرة التداول والاستعمال كان لها أثرها فى جعل الالفاظ أرقى من مجرد رموز ، والاعتزاز بالالفاظ وتقدير فضلها فى الحياة أدى الى اعطائها فوق مالها فى الحقيقـــة والواقع ، والنظرات الادبية قد تمنح الالفاظ اعتبارات ودلائل لاوجود لها ٠

٩ ــ أن الكلمة الواحدة فى اللغة الواحدة قد تعبر عن عدة معان ، وهو ما يسمى بالمشترك اللفظى ، وهذا لايتفق مع مذهب الصلة بين الالفاظ والمدلولات ، وكلمة العين مثلا تدل بوضوح على معارضـــة منهج الربط بين الاصوات والمدلولات ٠٠ (٥)

---

(١) د ٠ ابراهيم انيس : من أسرار اللغة ص ١٣١ ٠
(٢) د ٠ ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ٧٢ ٠
(٣) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز ص ٤٠١ والآمدى ٠ الاحكام فى أصول الاحكام جـ ١ ص ٤٨ ٠
(٤) ميخائيل نعيمة : الغربال ص ١٥ ٠
(٥) انظر المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٣٧٢ ــ ٣٧٥ ٠

١٠ — أن الترادف وهو أن يدل لفظان مختلفان فأكثر على معنى واحد باعتبار واحد (١) • يعد دليلا قويا على معارضة فكرة الصلة •

١١ — على الرغم من جهود من حاولوا تعليل نشأة أصول الالفاظ الاولى بمحاكاة الاصوات الطبيعية فانهم لم يقدموا برهانا ساطعا أو دليلا قاطعا ، فلم تصدق المحاكاة عند بعض الباحثين (٢) الا فى القليل النادر من ألفاظ كل لغة • واذا قيل أن قط وما يتفرع منها من ألفـــاظ والقص والكسر والانين والحفيف والقلقلة والصليل وأضرابها — تحكى بأصوات حروفها أصوات الاحداث التى تدل عليها فى اللغة العربية • • فكم عدد الالفاظ التى تقع هذا الموقع وتتصف بهذه الخاصة فى اللغة العربية • • ؟

لا شك أنها قليلة محدودة • أما الالفاظ التى بين جرسها ومعناها تناسب وتوافق فربما كانت أكثر عددا « ولكنها لا يحتج بها فى الباب ولا يمكن أن يعلل أصل وضعها بالتعليل الصوتى لمجرد هذا التناسب وذلك مثل شق ودق وقرع وكبكب وسال ونفخ وزحف • •

على أن فى هذا التناسب شيئا كثيرا من العادة والائتلاف عند أهل كل لغة فى الربط بين بعض المعانى وبعض الاصوات • ولو صحت هذه النظرية لما تعددت اللغات ولتماثلت أو تشابهت على الاقل • فان أصوات الطبيعة واحدة ، مع أن تلاقى اللغات فى ألفاظ واحدة وتشابه الالفاظ الدالة على معان واحدة لا يقع الا فى القليل النادر •

واذا وقع فلابد غالبا من بعض الاختلاف (٣) •

ويبدو أن النهضة اللغوية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين جعلت الغلبة لهذا المذهب الذى يعارض الربط بين الاصوات والمدلولات بعد أن دعم موقفه بأدلة قوية ، وأثبت بعض أنصـــاره أن

---

(١) انظر المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٤٠٢ •
(٢) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٨٧ — ١٨٨ •
(٣) نفس المصـــدر •

المقارنة بين مئات الكلمات فى الفصيلة الهندية الاوربية فيها البرهان على فساد فكرة من ينادى بأن اللغة اتخذت للتعبير عن الاشياء طريق الاصوات التى توحى الى الآذان بنفسها أو بمقارنتها بغيرها أثرا مماثلا لذلك الذى توحيه تلك الاشياء الى العقول • (١)

والمذهب الرابع الذى يمثل الاعتدال،ويعد ثمرة من ثمار التحقيق والموازنة يرى أن فى اللغة معانى تتطلب اصواتا خاصة ،وهناك مدلولات تسارع اللغة للتعبير عنها بألفاظ معينة (٢) ، وعنده أن المناسبة ظاهرة فى حكاية الاصوات ، مع مراعاة أن المضاهاة الصوتية قلما تكمل أو تدنو من الكمال للاختلاف فى أدوات السمع ، وملاحظة أن المحكى أصوات ساذجة لا رباط لها ، ولا عصام يحصرها • وقد تظهر المناسبة فى الصورة أو الصفة وقد تخفى ، فلا ينبغى الغلو والتطرف والزعم بأنها محققة دائما ، وان لم تظهر فمرجع الامر الى عدم انعام النظر أو وجود اشياء فى أصول اللغة لم تصل الينا فخفيت علينا هذه المناسبة

والحق عنده أن الشىء قد يسمى بما صلة له به ، وأنه لا توجد مناسبة فى مثل العقل والحلم وفى مثل القط للحيوان الخاص وكذلك الثعلب • وغير ذلك ، مما يؤكد ضرر الاسراف فى القول بها فى كل شىء ويومىء الى أن بعض الادباء قد خالف الاسس اللغوية العملية ، وأراد أن يفرض الصلة العقلية وان كان السبيل هو التعسف والشطط •

الرافعى ونظرية المناسبة :

أشرنا الى ايمان الرافعى بالمناسبة والواقع أنه يجعل اللغة كلها حكاية للطبيعة ليؤكد هذا الايمان ، ويجعل للمناسبة الفضل فى كشف الاسرار ، وابراز التمدن ، والسيطرة على الدرس اللغوى • ولا ريب فى أن الرجل يعتمد عليها كل الاعتماد ، ويقرر أنه لابد من مراعاتها فى الوضع والنمو ،وان اختلف الوجه قوة وضعفا •

---

(١) د : ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٢) نفس المصدر ص ١٢٨ .

يقول الرافعى (١) فى المجاز : « وهذا هو الوضع الاخير فى اللغة ، ولذ تجد مراعاة المناسبة فيه على أضعف وجوهها ، فكأنهم فى الوضع الاول راعوا المناسبة الثابتة التى لا زيادة فيها • ثم توسعوا فى هذه المناسبة بنوع من التصرف فى الوضع الثانى ، وهو الاشتقاق ثم بلغوا آخر حدودها (المناسبة) فى المجاز • وهذا مما يؤكد أن اللغة كلهـا حكاية للطبيعة ، فان كان ثم توقيف أو وحى فيكون فى هداية العقول الى أسرار هذه الحكاية » •

وهكذا نجد المناسبة تراعى فى طرق الوضع . وهى ثلاثة أنواع : مناسبة ثابتة لا زيادة فيها ، ومناسبة توسعوا فيها بنوع من التصرف ومناسبة تمثل آخر الحدود أو تأتى على أضعف وجوهها •

واذا كانت المناسبة على هذا المستوى الشامل ، فان اللغة تعد عنده حكاية للطبيعة ، ويوجهنا الرافعى الى أنه «لابد فى استكناه منطـق الطبيعة من الذهن الشفاف ، والبصيرة النفاذة ، والالهام الخفى الذى يشبه قبسا من النور الآلهى يضىء بين العقل والقلب فلا يقع شعاعه على جهة من الطبيعة الا كشف منها عن معانى الاسرار الآلهية » (٢)

وهذا التوجيه فيه الايمان الشديد بحكاية الطبيعة وما تفرضه من المناسبة والارشاد الى الامور التى تكشف المناسبة ، وتظهر اسرار الحكاية •

وقد لجأ الرافعى الى الغلو فى وصف الالهام ، وكأنه يحتم وجود المناسبة ويؤكد أنها تحتاج أحيانا الى قدرة بالغة تشبه قبسا من النور الآلهى •

ان تلك القدرة الفائقة هى التى تتولى الكشف ، وتحقق الصلة بين الالفاظ والمدلولات ، وتعظم الاسرار الآلهية التى جعلت حكاية الطبيعة أو أوجه المناسبة تسيطر على أمر اللغة ، وتدعو الى اجـلال مكانتها •

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٥ .

والرافعى يؤمن بأن لغات العرب • وان اختلفت فى اللحن والاستعمال الا أنها تتفق فى المعنى الذى من أجله صار العرب جميعا يخشعون للفصاحة من أى قبيل جاءتهم • وهذا المعنى هو مناسبة التركيب فى أحرف الكلمة الواحدة ثم ملاءمتها للكلمة التى بازائها ، ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه (١) • وهو يؤمن ايضا بأن اللغة « لا تشب عن أطوار اهلها متى كانت من غرائزهم ، وانما تكون على مقدارهم ضعفا وقوة لانها صورتهم المتكلمة ، وهم صورتها المفكرة ، فهى ألفاظ معانيهم ، وهم فى الحقيقة معانى ألفاظها • ولذلك لا تزيد عليهم ولا ينقصون عنها ، مادام رسمهم لم يتغير وما دامت عادتهم لم تنتقل (٢) » ومن قبل وجهنا ابن جنى عند رؤية شىء لا ينقاد لنا فيما رسمه ، ولا يتابعنا على ما أورده الى السبب الذى لم يمكننا من كشف المناسبة أو الصلة أو امساس الالفاظ أشباه المعانى ، ولكنه لم يبلغ مبلغ الرافعى فى حديثه عن البصيرة النفاذة والالهام الخفى الذى يشبه أن يكون قبسا من النور الآلهى ، ان هذا اللغوى الكبير يؤمن بأن المناسبة مما ثبت الله أطنابه ، وأحصف بالحكمة أسبابه ، وهى مراعاة ، وان لم نستطع كشفها وتجلية وجهها • يقول فى الخصائص (٣) : « فان أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه ولا يتابعك على ما أوردناه ، فأحد أمرين : أما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه ، أو لان لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا كما قال سيبويه ، أو لان الاول وصل اليه علم لم يصل الى الآخر • فان قلت فهلا اجزت أيضا ان يكون ما أوردته فى هذا الموضع شيئا اتفق ، وأمرا وقع فى صورة المقصود من غير أن يعتقد ، وما الفرق ؟

قيل فى هذا حكم بابطال ما دلت الدلالة عليه من حكمة العرب التى تشهد بها العقول ، وتتناصر اليها أغراض ذوى التحصيل • فما ورد على وجه يقبله القياس ، وتقتاد اليه دواعى النظر والانصاف حمل عليها ، ونسبت الصنعة فيه اليها •وما تجاوز ذلك فخفى لم توءس النفس منه،

---

(١) مصطفى صادق الرافعى اعجاز القرآن والبلاغة النبوية الطبعة الثانية ١٩٢٦ المطبعة الرحمانية ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢) نفسه ص ٦٨ .
(٣) ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

ووكل الى مصادقة النظر فيه ، وكان الاحرى به أن يتهم الانسان نظره ولا يخف الى ادعاء النقض فيما قد ثبت الله أطنابه ، وأحصف بالحكمة أسبابه • ولو لم يتنبه على ذلك الا بما جاء عنهم من تسمية الاشياء بأصواتها ، كالخازباز لصوته ، والبط لصوته ، والخاقباق لصوت الفرج عند الجماع • والواق للصرد لصوته ، وغاق للغراب لصوته • • ونحو منه قولهم حاحيت ، وعاعيت ، وهاهيت ، اذا قلت : حاء ، وعاء ، وهاء • وقولهم بسملت وهيللت ، وحولقت ، كل ذلك وأشباهه انما يرجع فى اشتقاقه الى الاصوات ، والامر أوسع » •

ويبدو أن الرافعى وان اتجه الى المبالغة والغلو قد تأثر فى مسألة الوضع بالسابقين الذين يرون أن اللغة سواء أكانت الهاما آلهيا أم كانت اصطلاحا بشريا — لابد فيها من وضع يجعل لفظ كذا بازاء كذا ، بوضع واضع قدر الحاجة اللغوية ، ووضع الكلمات الوافيـــة بها ،كما لحظ الاعتبارات الحيوية المختلفة التى سيحوج اليها الاستعمال فى المستقبل البعيد ، وأعطى الكلمات أحوالها التى تلائم هذا الاستعمال وتيسر أمره •

وأرى أن تعويله على الوضع الذى يفيد التعيين — تعيين اللفظ بازاء المعنى ، يدعم نظرية المناسبة ، فالوضع عمل عقلى صناعى ، وان كان التحقيق يثبت ان عملية الوضع هذه تقوم على أساس مناقض لطبيعة أن اللغة اجتماعية ، وليست اجتهادا عقليا ، أو عملا لفرد أو أفراد (١) •

وفى عرض الرافعى طرق الوضع يهتم بأمر المناسبة اهتمـــاما واضحا فيقول فى الارتجال (٢) : « هو وضع اللفظ ابتداء فى أول أمر اللغة بتقليد الطبيعة كما مر فى موضعه • • » ثم يقرر بعد ذلك أن الارتجال تراعى فيه النسبة بين اللفظ الموضوع والمعنى الموضوع له ، كمحاكاة الاصوات والحركات الطبيعية ونحوها • •

---

(١) أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٤ .
(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٦٨ .

أما الاشتقاق فانه يقول (١) : « كل ما وضع من اللغة ارتجالا فانما وضع لمناسبة بين الدال والمدلول على وجه من الوجوه ، ولولا تحقيق هذه المناسبة فى الوضع الاول ماتنبهوا اليه فى الوضع الثانى لان بعض الاشياء يدعو الى بعض ، والارتقاء سنة لابد فيها من اطراد النسبة ، وعلى هذا أمكنهم أن يجعلوا كل مقطع من المقاطع الثنائية أصلا فى الدلالة ثم يفرعون عنه بالاشتقاق معانيه الجزئية المختلفة التى ترجع فى أصل الدلالة اليه ، فكأن المعانى سلاسل مرتبة تنحصر كل طائفة منها تحت جنس معلوم على ما قرروه فى مذهب النشوء والارتقاء .

ولا يزال هذا التسلسل متحققا فى اللغات السامية الباقية الى اليوم وهو أظهر فى العربية منه فى اخواتها حتى ذهب بعض العلماء الذين استقروا تراكيب اللغة الى أن هذا الاصل مستصحب فى كل تركيب ، بحيث لا يخلو مما يرجعه اليه ولو تأويلا من طرق المجاز الا ما تخلف عن سلسلته لامر طارىء على أصل الوضع . كأن يكون مبدلا من لفظ آخر أو مقلوبا عنه أو داخلا فى تركيب المادة من لغة اخرى لان العلماء الذين دونوا هذه اللغة جمعوها من لغات كثيرة بعد أن تداخلت هذه اللغات بعضها فى بعض . . فخفى بهذا التداخل كثير من وجوه الوضع الاشتقاقى ، وأضاع النقل كثيرا من ألفاظ اللغة ، مما انثلمت به سلسلة أوضاعها ، فأصبحت بحيث لا يمكن يدل فيها على تحقق التسلسل الا باعتبار الاغلب الاعم » . .

ويذكر الرافعى ما نقل عن بعض المعتزلة أنه ذهب الى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع عن أن يضع . . ثم يقول (٢) : « و أما خواص اهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الالفاظ والمعانى . . »

ويتحدث الرافعى بعد ذلك عن الاشتقاق ثم يقول : « وقد قلنا فى تحقيق المناسبة بين الالفاظ والمعانى ، وأن أكثر أهل اللغة والعربية مطبقون على ثبوتها لانها فى الحقيقة ليست الا توسعا فى المناسبة الاولى

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٩ — ١٧٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧١ .

التى هيأت للواضع أن يضع بالتقليد والمحاكاة ونحن ذاكرون طرفا مما يثبت تلك المناسبة ٠ ٠ »

ويأتى الرافعى بأمثلة ذكرها البيضاوى فى التفسير ، وهى ألفاظ تتفق فى حرفين وتختلف فى الثالث وترتبط ببعض المعانى ، ويعدها الاديب الباحث مما يثبت المناسبة مثل : « قال البيضاوى فى تفسير قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) (١) أنفق الشىء وأنفده اخوان ولو استقريت الالفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالا على الذهاب والخروج » ٠ وهذا بناء على ما عليه أهل اللغة من أن المشاركة فى أكثر الحروف اشتقاق يدور عليه معنى المادةفيتحد أصل معناها ، ويتغاير من بعض الوجوه ٠

والمراد بالاخوة توافقهما فى الاشتقاق ، وهو هنا الاشتقاق الاكبر أما أنواع النمو فى اللغة فهى لديه تحدد فى جملتها اجزاء اللغة ، وتصف تاريخ اتساعهم فيها ، وهى من هذه الجهـــة تعتبر تماما على الذى تقدم وتفصيلا له (٢) ٠ وهو يؤكد فى بعض هذه الانواع أن اللغة نطق عن الطبيعة ٠ ففى الابدال يقول (٣) : « وقد أسلفنا فى الكلام على أصل الوضع أن الدورة الجديدة التى دارت بها الحروف بعد وضع المقاطع الثنائية كانت بالقلب والابدال ٠ والدليل على ذلك أن اكثر ما يجرى فيه الابدال من اللغة انما هو الالفاظ الطبيعية الاولى التى كانت من حاجة الانسان أول عهده بالتعبير كالقطع والكسر والهدم والشق والخرقة والفرقة والتبديد وهى المعانى الوحشية فى لغة الانســان ٠ ثم لما انقاد الوضع بهذه الطريقة لاهل اللغة جعلوها من سنتهم ، وقلبوا عليها الالفاظ الاخرى مما ليس بسبيل من تلك المعانى ٠ والغريب أن فعـل القطع يكاد يكون الاصل فى اكثر هذه اللغة فقلما تناولت مادة الا رأيت أثره المعنوى فيها ، ولو تأويلا ، من طريق المجاز ، وهذا يؤكد أن اللغة نطق عن الطبيعة » ٠

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ — ١٧٢ وراجع حاشية الشهاب الخفاجى المسماة بعناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى الجزء الاول طبع بولاق ١٢٨٣ هـ ص ٢٢٩ وانظر ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(٢) مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ١٨٠
(٣) المصدر السابق ص ١٨٠ — ١٨١

وواضح أن الرجل يشير الى ما صنعه الاتساع ، ويجعل انواع النمو تماما على الذى تقدم وتفصيلا له ، ليدل على أن المناسبة تراعى فى هذه الانواع بوجه من الوجوه التى تحققها ، وعند بيان الامثلة نجده يزيد الامر تجلية وتأكيدا ويقضى بمستوى المناسبة•يقول الرافعى (١): « فكل أولئك انما يقع فيه الابدال لتجزئة المعانى فترى الالفاظ متقاربة ترجع الى مقطع واحد ، وهى بعد متباينة فى الــدلالة ،وكذلك ترى معانى كل طائفة منها ترجع الى جنس واحد ثم تتباين متقاربة • وبهذا يتحقق الارتباط المتسلسل الذى هو برهان التاريخ على النشء اللغوى •

وقد تجد للمعنى الواحد ألفاظا متعددة فى اللغة ، ثم تجد كل لفظ قد صار أصلا فى الدلالة ، وتفرعت عنه ألفاظ اخرى على طــريق الابدال ، ثم يدل بكل لفظ على جزء من أجزاء المعنى • كما تجد من ألفاظ القطع مثلا قط ، وقص ، وجذ ، وغيرها • فان هذه الالفاظ وضعت فى الاصل حكاية لانواع من أصوات القطع اما حقيقية أو متوهمة • فقد تسمع أنت صوت الشىء المقطوع كأنه « قط » ولكن غيرك يتوهمه كأنه « قت » •

وقد يكون لبعض الاشياء المقطوعة أصوات اخرى تحكى (جذ) أو (كس) أو (قص) ، وغيرها • فترى لفظ قط قد صار اصلا وتفرع عنه قطع وقطف وقطب وقطم وقطل ، ونحوها • وترى لفظ (قص) قد تفرع عنه قصم وقصل وقصب وقصر وقصف • ومن لفظ (جذ) جذب وجذر وجذف وجذم • وهكذا • وكلها معان متقاربة تتقلب معها الالفاظ المتفرعة عن مقطع واحد • وهذا هو أكبر أنواع النمو فى اللغة ، لانه أصل نشأتها » •

هذا موقف الاديب الباحث ، وقد أشرنا فى المذهب الثالث من مذاهب المحدثين الى رأى بعضهم فى فعل القطع ، واتخاذه حجة فى معارضة فكرة الصلة أو المناسبة •

---

(١) المصدر ذاته ص ١٨١ — ١٨٢

والذى يهمنا الآن انما هو تجلية اسرار النظام اللغوى ، وبيان أنها تقوم على نظرية المناسبة عند الرافعى ، وتعتمد على منهجه فى الاتساع ، والشمول ، وايمانه بالرباط الذى يجمع ضروب النظام اللغوى ويخضعها لنسقه وسيطرته • ولابد لنا من الاشارة الى تمدن العرب اللغوى ، لندرك علاقة الاسرار به •

تمدن العرب اللغوى :

يرى الرافعى أن تمدن العرب اللغوى ، حقيقة لا ريب فيها ، لان هناك كمالا فى وضع اللغة واحكامها على سنن فيها المعنى الالهى ، وفيها الروعة التى تملك على الانسان مذاهب حسه ، وتنساب فى قلبه ، وفيها ما صنعه العقل الحى الذى عول على الحكمة ، والنظرات السامية حتى ظهر سر ابتداعه ولا يمكن انكار هذا التمدن عنده لان اللغة صورة الاجتماع والعرب : « فى تمدن جاهليتهم الفصحى لا يوازنون أمة من أمم التاريخ ، بل هم لولا ما سبق فى علم الله من أمر سيكون فيهم ، وقدر واقع بهم ، وشأن فى الغيب مخبوء لهم ، لما عدموا فى الاعتبار الاجتماعى ان يعدوا موجودات انسانية مهملة كأنهم بقايا منسية من التاريخ • وقد تقرر عند الحكماء أن غنى اللغة بألفاظها ، واتساع وجوه التصرف فيها دليل بين على مدنية اهلها وسعة متفيئهم من ظل الاجتماع فلا يبقى الا أن يكون للعرب تمدن لغوى خصوا به من أصل الفطرة •• » (١)

ومما يؤكد هذا التمدن أن الاحوال الظاهرة للجماعة انما هى مرآة التغيرات الباطنة فى الافراد ، والاجتماع فى معناه ليس الا مجموع آثار العقول وتاريخ التغيرات النفسية • ان وجه المناسبة يسود فلسفة التمدن ، وألوانها تتبث لدى الرافعى أن العرب لا ترى حقيقة لهم ولا يشاهد مظهر الا فى اللغة • وحقيقة التمدن تدل على أن تلك اللغة بحر الحياة : « الذى انصبت فيه جميع العناصر ، وانبعث بها

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢١٤

هذا التيار العقلى الذى يدفع بعضه بعضا ، وكأنها هى التى تهذب من نفوسهم وتزنها ، وتعدلها وتخلصها برقة أوضاعها وسمو تراكيبها ، حتى ينشأ ناشئهم فى نفسه على ما يرى من أوضاع الكمال » (١) •

والنظام النفسى عامل هام فى اثبات التمدن ، بل هو الاساس الذى يمنح اللغة منزلتها ، وشروط التمدن الاجتماعى وهى الحرية والنظام والنمو هى أخص مميزات اللغة العربية ، « فهى حرة فى أوضاعها بما يطابق الحرية الشخصية والسياسية • منتظمة فى أجزائها بما يماثل نظام القوانين والشرائع • • نامية فى مجموعها بما فيها من ثروة الاوضاع •• » (٢) •

والرافعى يغلو فى الامر حين يقول (٣) : « فالعرب اذن قوم معنويون • كان تمدنهم معنويا ، ولو جردتهم من مزايا لغتهم ، وألقيت فى أفواههم أصول اى لغة من لغات العالم لخرجوا بها جنسا مغمورا فى الاجناس ، ولكانت حريتهم عبثا ، ونظام قبائلهم فسادا ، ولصاروا فى الجملة الى حال الشعوب التى لا يدور بها الزمان • • »

وسبق أن ذكرنا رأى البحث اللغوى فى التفضيل ، وأومأنا الى اسراف هذا الاديب الباحث فى تعظيم اللغة اسرافا لم يبلغه احد ، ولكننا نلاحظ أن هذا الكلام فاق كل حد فى المبالغة ، وبدا فريدا فى مسلكه الذى يتجاهل نسق الاعتدال ، ولا يراعى أمر الحقائق اللغوية التى تحتمها الموازنة المنصفة • • ومهما يكن من شىء فانه يقرر أن من وجوه التمدن العناية بتأليف الحروف ، والاعتصام بعذوبة المنطق ، ومراعاة النسب اللفظى ، واحكام الكلام ، وتوخى روعة الاسلوب ، وفخامة التركيب ، ويقضى بأن هذا مما خص به العرب دون سائر الامم ، ويحرص على ذكر وجه الاستغلال المعنوى الذى يقوم على مراعاة السنن الطبيعية الثابتة ، لانهم يفرعون من المعانى فروعا كثيرة بالمجاز

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٥
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦ — ٢١٧
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٧

والاستعارة ثم يجرون عليها الالفاظ التى تناسبها • وهو حريص كل الحرص على تأكيد نظرية المناسبة التى تجعل الالفاظ تنزل على حكم العرب فى التأليف من العذوبة والمناسبة (١) •

ويرى الاديب اللغوى أن من وجوه التمدن أيضا الحركات التى تخصص المعانى وتعين الاغراض ، ويحكم بأنها من أخص مميزات السمو العقلى ، ويذكر أنواعا من الحركات منها الحركات الاعرابية ، التى يقرر أنها فى التمييز بين المعانى لا نظير لها ، فلا يوجد ذلك فى غير لغة العرب • ومنها حركات التصريف وغيرها مما يشير الى الفروق (٢) •

ومن وجوه التمدن التى تستنفد عجب المفكر فى رأيه تصرف العرب فى حروف المعانى ، ودلالتهم بالحرف الواحد فى الكلمة على المعانى المختلفة كمعانى الهمزة والباء وغيرهما مما يتصرف به مناحى الكلام أما ما يزيد العجب فهو أن لا يكون بين المعنيين أو المعانى الكثيرة وجوه من الشبه بحيث يتأول فى رد معانيها الاصول بعضها الى بعض (٣) •

ويعتبر الرافعى النظام فى هذه اللغة هو الصلة بين طريقى التمدن اللغوى اللذين هما الحرية والنمو (٤) ، ويحتفل بأسرار النظام ، فيجعل لها دراسة خاصة ، وشرحا يعبر عن ادراكه أهميتها ، وفطنته لما تمثله من الجلال فى الدرس ، والتكامل فى النسق ، والسيطرة فى اللغة •

وارحق أنها تستحق هذه العناية التى تبرز فى تاريخ آداب العرب ومنهجها المترابط برهان على أن الرجل له منزلته فى البحث اللغوى ، وله آراؤه التى تحاول الوصول الى نسق شامل يعتبر وجها جديدا فى البحث ، ودراسة متعمقة فى أسرار اللغة ، ووجوه التمدن الهامة •

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٧ — ٢١٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٩ — ٢٢٠

(٣) المصدر نفسه ٢٢٠

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٢ . وعبارة الرافعى هو الصلة بين طرقى التمدن اللغوى اللذين هما الحرية والنمو . ولعل المقصود «طرفى» التمدن لانه ذكر أن شروط التمدن الحرية والنظام والنمو .

أسرار النظام اللغوى :

يرى الرافعى أنه توجد ثلاثة ضروب تكشف أسرار النظام اللغوى وهـــى :

١ ــ نظام الالفاظ بالمعانى

٢ ــ نظام المعانى بالالفاظ

٣ــ النظام المطلق ، وهو نظام القرينة أو الحس النفسى •

وأرى أن الضروب الثلاثة تقوم عنده على نظرية المناسبة ، وهذا يحقق العامل الذى يعطى النسق ترابطا ، ويوجه الدرس اللغوى الى منهج شامل له هيمنته على أضرب النظام ، واخضاعها لما تفرضه وجـــوه المناسبة ، وقد ذهبنا الى ذلك لان الرافعى يحدد ما يقصده بالنظـــام اللغوى فيقول (١) : « لا نريد بمعنى النظام هذه الاحكام الظاهرة فى اللغة كالاعراب ، والتصريف ، والقواعد اللسانية • من نحو عدم الجمع بين ساكنين ، أو متحركين متضادين ، فهذا كله ليس الا أسبابا للنظام الذى نشرحه فى هذا الفصل ، وهو يشبه النظام النفسى ، من حيث تعلقه بالحكمة التى تضبط عواطف النفس وخطراتها » وهكذا يشير الى أن نظامه يقوم على مراعاة المناسبة ، لانه يشبه النظام النفسى من حيث تعلقه بالحكمة ، ولانه يعمل على ضبط عـــواطف النفس وخطراتها ، وليس أحكاما ظاهرة فى اللغة كالاعراب ، والتصريف ، والقواعد اللسانية •

والرجل يود أن ينبه على أن غرضه تحقيق مستوى يأتى بالترابط ويدلنا على أن منهجه هو منهج الشمول الذى يجد فى النظام النفسى غايته ، ويجد فى الحكمة السر الذى يضع فى هذه الضروب ما عرفه من اتقان أو ما اكتشفه من خصائص • ولا ريب فى أنه يرمى الى أن يصبغ اللغة وبعض ظواهرها بصبغة عقلية ، ويقصد أن يحملنا على التسليم بأن للحالة النفسية أثرا فى معظم ما نراه فى الانظمة الثلاثة المتقدمـــة •

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢٣

ومن الملاحظ أن من الاحكام الظاهرة التى ذكر أنه لا يريدها التصريف ولكننا نجد أنه يذكر الاشتقاق بعد ذلك ، وبين الاشتقاق والتصريف تشابك وتلازم وترابط • قال ابن جنى فى كتابه المنصف (١) : « وهذا القبيل من العلم اعنى التصريف يحتاج اليه جميع أهل العربية لانه ميزان العربية ، وبه تعرف الاصول من كلام العرب من الزوائد الداخلة عليه ، ولا يوصل الى معرفة الاشتقاق الا به » • وقال ايضا(٢) : « وينبغى أن يعلم ان بين التصريف والاشتقاق نسبا قريبا ، واتصالا شديدا » •

ومن المعروف أن أحدهما طريق الى معرفة الآخر

وموقفه من الاعـــراب هو نفس موقفه من التصريف • وابن السيد البطليوسى يقول فى كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب(٣) : « ولعمرى ان العرب ربما حاكت المعنى باللفظ الذى هو عبارة عنه فى بعض المواضع ، ويوجد ذلك تارة فى صفة الكلمة وتارة فى اعرابها » ويبدو أن الرافعى يرى أن الاعراب والحركات وموقـــع الكلمة بين الكلمات الاخرى لايدخل فى رأيه فى تحديد المعنى والمفهوم حســب المستوى الذى يقصده ــ وانما هذه الامور تحدد صلة الكلمة بالالفاظ المجاورة لها أو على الاصح تحدد صلة معناها بمعانيها ككونها فاعلا بالنسبة للفعل أو خبرا بالنسبة للمبتدأ ، وهذا يدخل فى بحث تركيب الكلام •

ويبدو أنه لايريد أن يأتى بما هو مبســـوط فى كتب التصريف وكتب النحو من تلك الاحكام الظاهرة ــ لان غرضه هو كشف أسرار المناسبة ، وهذه الاحكام فى رأيه ليست الا أســـبابا للنظام ، وهى ظاهرة ، يعرفها الناس ، وانما الذى يشبه النظام هو الذى يتجه اليه البحث والاهتمام •

---

(١) جـ ١ ص ٢ ، ٣ ــ الطبعة الاولى تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله امين نشر الحلبى سنة ١٩٥٤ م

(٢) نفس المصـــدر

(٣) ص ١٥٧

وأعتقد أن نظام القرينة الذى سيذكره يحتاج الى الاعـــراب والتصريف ، وبعض ماجاء به فى نظام الالفاظ بالمعانى يعــود الى التصريف ، ويرتبط بأحكامه •• وأياما كان الامر فان قواعد النحــو والتصريف تعين على ادراك الفروق والاسرار التى تكون بين استعمالات اللغة واستخداماتها • واذا كانت الدراسات اللغوية كلها تركز اهتمامها على المعنى فانه يأخذ فى الاصوات « صورة القيم الخلافية بين الصوت والصوت ، وفى التشكيل صورة هذه القيم بين الحرف والحرف ، وبين المقطع والمقطع ، وبين النبر والنبر ، وبين النغمة والنغمة • وأما فى الصرف فيبدو فى صورتها بين الصيغة والصيغة ، وفى النحو بين الباب والباب » (١) •

ولاينبغى أن يغيب عنا أن اللغة منظمة عرفية للرمز الى نشاط المجتمع « وهذه المنظمة تشـتمل على عدد من الانظمــة يتألف كل واحد منها من مجموعة من المعانى تقف بازائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المبانى المعبرة عن هذه المعانى ، ثم من طائفة من العلاقات التى تربط ربطا ايجابيا ، والفروق « القيم الخلافية » التى تربط سلبيا •• » (٢) •

واللغة منظمة كبرى مكونة من أنظمة هى النظام الصـــــوتى ، والنظام الصرفى والنظام النحوى ، وهذه الانظمة تترابط فى مسرح الاستعمال اللغوى فلا يمكن الفصل بينها الاصناعة ولاغراض التحليل فقط (٣) •

---

(١) د : تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٣٢ — ٢٣٣
(٢) د : تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٤
(٣) نفسه ص ٣٧ — ٣٨ ، وانظر ص ٣٤ — ٣٧